تحقيق نسبة كتاب
درة التنزيل وغرة التأويل

للدكتور عمر الساريسي

تنسب بعض المصادر هذا الكتاب لابي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي المتوفى ٤٢٠هـ ، كما نرى في معجم الادباء (١) ، لياقوت ، وفي الاتقان في علوم القرآن « للسيوطي » ؛ بل ان هذا الكتاب قد طبع مرتين (٢) ، فيما اعلم ، منسوبا اليه ايضا .

« ونسبة هذا الكتاب الى هذا المصنف بحاجة الى اعادة نظر ؛ ذلك انني وجدته ، وانا انقب في بحثي هذا ، منسوبا لمصنف آخر ، هو الراغب الاصفهاني ، الحسين بن مفضل بن محمد ، الذي عاش الى اوائل المئة الخامسة ، وذلك بتعديل طفيف اجري على العنوان ليصبح « درة التاويل في متشابه التنزيل » (٣) .

وقد رايت نسبة هذا الكتاب للراغب نسبة صريحة على اغلفة النسخ التالية للمخطوطة وعلى صفحاتها الاولى : ـ

١ ـ رقم ١٧٦ في مكتبة اسعد افندي في جامع السليمانية في استانبول .

٢ ـ رقم ٢٥ في مكتبة خسرو باشا في جامع السليمانية في استانبول .

٣ ـ رقم ١٨٠ في مكتبة راغب باشا في استانبول .

---

(١) مطبعة المامون ١٨ / ٢١٤ ، ٢١٥

(٢) طبع لاول مرة بمطبعة الخانجي بمصر ١٩٠٨ ، والثانية صدرت عن دار الآفاق الجديدة في بيروت عام ١٩٧٣

(٣) من كلمة نشرت لمعدّ هذا البحث في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ١ م ٥١ عام ١٩٧٦

٤ — رقم ١٧٤٨/أ/٨٥٠ في مكتبة جامع السلطان احمد الثالث / طوب قبوسراي ، باستنبول .

٥ — رقم ١٧٤٩/أ/١٨٣٠ في مكتبة جامع السلطان احمد الثالث / طوب قبوسراي باستنبول .

٦ — رقم ٧ تفسير . في مكتبة معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، والصورة على (الميكروفيلم) عن مخطوط وجد بالمتحف البريطاني برقم ٥٧٨٤ ورقم ٢٣٤ .

وقد يجري بين هذه النسخ المخطوطة ما يجري بين نسخ المخطوط الواحد المتعددة . من اختلاف يسير قد يكون في عنوان او في بعض التراكيب. من ذلك ، ما نجده هنا ، ان نسخة مكتبة راغب باشا (رقم ١٨٠) وسمت باسم « حل متشابهات القرآن »(٣) ونسخة مكتبة خسرو باشا (رقم ٢٥) باسم « تفسير المتشابهات » (٤) ونسخة اخرى باسم « تفسير القرآن العظيم » (٥) ورابعة باسم « أسرار التأويل وغرة التنزيل » (٦) ، ولكنها تلتقي في أمرين هامين . هما النسبة الصريحة للراغب الاصفهاني (٧) والمادة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب من ادارة الفروق الدقيقة بين الآيات القرآنية المتشابهة الصيغ والتراكيب .

---

(٤) مخطوط رقم (٢٥) مكتبة خسرو باشا بالسليمانية .

(٥) كما هو مثبت على غلاف مخطوط « الذريعة الى اخلاق (كذا) الشريعة » المنسوبة للراغب برقم (٧٦٨) بمكتبة ابرهيم باشا بالسليمانية .

(٦) هي النسخة التي تحمل رقم « ٧ تفسير » في مكتبة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية .

(٧) وينسبه الراغب ، أيضا ، بروكلمان (٣ / ٥٠٥ — ٥٠٦ المبسط) ، والاعلام ٢ / ٢٧٩ ويسميه حل متشابهات القرآن ، ودائرة المعارف الاسلامية المجلد ٩ (١ / ٤٧٣) . ومن الغريب انه معدود من مصنفات الفخر الرازي في كتابه « النفس والروح وشرح قواهما » المطبوع في الهند ١٩٦٨ .

ان هـذا في المقدمة في بدايتها يدل ، فيما احسب ، على ان للمصنّف ساحبا هو الاول والمصنّف الحقيقي ، واما الاختلاف الجاري فيما بعد ، والذي فيه ما يُبْعِد عما عرفنا من اخلاق الراغب ، فلعلّه يدلّ على وقوع الانتحال فيها ، فيما بعد ؛ ومن هنا جاءت محاولات تلبسها بطوابع المنتحلين الجدد لها للمصنف ، بأسره ، بعدها .

ثم ان في بداية المقدمة نفسها ما يدخل على الشك فيها ؛ اذ انها تفتتح على النحو التالي : « الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم ، اما بعد ... » . ان الراغب لا يطيل في افتتاحياته لمقدمات مصنفاته ، فهو لا يزيد عن حمد الله بجملة دعائية قصيرة كقوله « رَبِّ يَسِّرْ ولا تُعَسِّرْ » ، وقوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » او امثالها ؛ ثم انه لم يستخدم « اما بعد » ، فيما اعرف ، على الاطلاق ! ولعل هذا ينهض دليلا اخر على ان المقدمة قد دخلها التحوير حينما امتدت الايدي الى المصنف بالانتحال .

جـ ـ رواية الاردستاني :

لعل ما قدم به رواية الكتاب للافتتاحية التي نسبها للاصفهاني واقتطفنا بعضها في الفترة السابقة ، لعلها تحمل في نفسها بعض ما يحمل على الشك في صحتها . يقول : « قال ابرهيم بن علي بن محمد ، المعروف بابن الفرج الاردستاني ، رحمه الله ، : هذه المسائل بيان الآيات المتشابهة لفظا بأعلام نصبت عليها من المعنى ، املاها ابو عبد الله ، محمد بن عبد الله ، الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ في القلعة الفخرية املاء لما خلافيها ولم يحضره غيري ممن يسوغ له حمل ما يكتب فيه ويكتب به ، فكتبت عن لفظه المسائل والاجوبة ، وسألته ان يصدّرها بخطبة فارتجلها كارتجاله سائر الكلام بعدها ، والله إعان ويسر وله الحمد » .

ان الراوية ـ الاردستاني ـ في هذا التقديم ، يذكر انه لم يحضر الاملاء الا هو ممن يستطيعون حمل الرواية والقيام باملائها .

ولا ادري سببا لهذه الحيطة الزائدة في عدم اشراك غيره من الرواة في السماع . وهو بذلك يقرب من خبر الاحاد في الحديث ، ولعله كان اقرب الى الروح العلمية لو ان غيره حضر الاملاء والرواية وشهد بذلك .

ثم انه يروي ان الخطيب قد ارتجل واملى من حافظته مقدمة الكتاب ، وليس في ذلك غضاضة ، لكنه يروي انه ارتجلها « كارتجاله سائر الكلام بعدها » ، اي انه بذلك ، يكون قد ارتجل مادة الكتاب كله ؛ وهي ما عبر عنه قبلها « بالاسئلة والاجوبة » ؛ ولعل من يعرف حجم هذا المصنف يجد صعوبة في قبول خبر الاملاء هذا من طريق الذاكرة والارتجال .

د ـ التمهيد للمسائل في مادة الكتاب :

يجد الطالع للمخطوطة ونُسَخها المنسوبة للراغب، وللكتاب المطبوع منسوبا للخطيب، اختلافا بينهما في التمهيد للبدء في اظهار الفروق بين الآيات المتشابهة . فلدى التعرّض ، مثلا ، لما بين بعض الآيات في سورة الرحمن ، من تشابه في الفواصل ولاظهار عدم التكرار في معاني هذه الفواصل ، يفتتح الراغب حديثه على النحو التالي :

الآية الاولى : قوله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ... (الآية) ؛ لِمَ اعاد ذكر الميزان ثلاث مرات آخر هذه الآي »؟(١٣) .

اما فيما ينسب لمحمد بن عبد الله ، الخطيب (الاسكافي) ، فالبداية رغم تقاربها الشديد مع هذه البداية، الا انها اصطنعت صيغة معينة تستخدمها في كل البدايات ، وتتضح فيما يلي :

الآية الأولى : قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا

---

(١٣) أسرار التأويل وغرة التنزيل ، للراغب ، مخطوط ، رقم (٧ تفسير) ، معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية

الميزان » ، للسائل ان يسأل لِمَ كرر (وفي بعض النسخ من امدة) لفظ الميزان ثلاث مرات في اواخر هذه الآي »[١٤] .

والصيغة كما يبدو هي « للسائل ان يسأل » فهو يكررها في بدء شرح كل مسألة بعد ذكر الآيات التي توهم بالتكرار .

والتزام الصيغة الواحدة في التأليف ، إن دلَّ على وحدة الشخصية المؤلفة وعلى ثبات الطريقة في التأليف ، فهو قد يدلّ ، ايضا ، على لون من التكلف ولزوم ما لا يلزم .

هـ ــ مادة الكتاب :

وبعد ، فان كل ما مرّ بنا من دلائل على الشك في نسبة كتاب « درة التأويل في متشابه التنزيل » الذي صنّفه الراغب الاصفهاني ، لمصنّف آخر ، هو محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي ، كل هذه الدلائل لا تتأيد الا بحجة اخرى قد تزنها جميعا ، وهي تلك التي تأتي من مادة الكتاب ونسيجه الاساسي .

والواضح ان مقابلة ما يُنسب للراغب من هذا الكتاب بما يُنسب للخطيب واثباته هنا لن يعدو اثبات النص الواحد مرتين [١٥] ، لا اختلاف بينهما الا ما عرضنا له في التمهيد لمسائل الكتاب ، من التزام الخطيب بصيغة « للسائل أن يسأل » وعدم التزام الراغب لصيغة معينة . وربما لَحِقَ اعمال الراغب ، في هذا الكتاب ، بعض الحذف ، مست بعض المسائل في بعض السور اقلّ مما كانت .

---

(١٤) « درة التنزيل وغرة التأويل » المنسوب للخطيب الاسكافي رقم (١٢٣ تفسير) ، بمعهد المخطوطات ، وكذلك في الكتاب المطبوع بهذا الاسم ، عن دار الافاق البيروتية ص ٤٦١ . أما الخطوطات السابقة فهي برقمة الصفحات .

(١٥) ولسهولة التأكد من ذلك يمكن المقابلة بين المخطوطتين المذكورتين في الملحق السابق ، وهما رقم (٧ تفسير) ورقم (١٢٣ تفسير) في معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية .

والاطراف ، بعد هذا كلـــه ، ان ناخل كتاب الراغب او منتخلـــه بعد قبل ان يحذف منه مـــا يضعفه بعمله هذا ضعفا ، حينما نســـي ان يسقط الاشـارة الى « جامـــع التفسير » (١٦) التي يشير الراغب بهـــا في كتابه هذا « درة التاويل في متشابه التنزيل » الـــى تفسيره الذي يحدثنا عنه في مكانه من آثـــاره .

---

(١٦) وهو ما ذكرنا انه ورد في سورة (الكافـــرون) في الكتاب الذي نحاول تصحيـــح النسبة الـــى مصنفة .